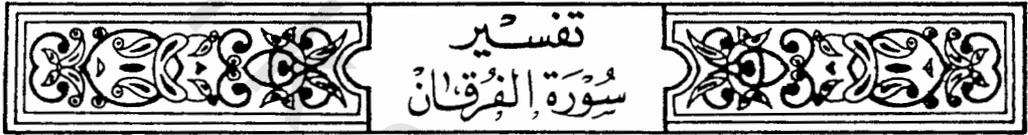


فيها، وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحن فيها - قال - فذلك مثلي ومثلكم، أنا أخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها» أخرجه من حديث عبد الرزاق.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم فقال ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ قد للتحقيق كما قال قبلها ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: 63] أي هو عالم به مشاهد له، لا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿فَيُنْتَهُمُ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي يخبرهم بما عملوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1] وقال ههنا ﴿تَبَارَكَ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ نزل فعل من التكرار والتكثير كقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: 136] لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة والقرآن نزل منجماً مفزلاً مفضلاً آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٢٧﴾﴾ وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ إِلَّا يَجِدْكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْسِيماً ﴿٣٢﴾ [الفرقان: 32، 33] ولهذا سماه ههنا الفرقان، لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وقوله: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ هذه صفة مدح وثناء، لأنه إضافة إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1] وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: 19] وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42] الذي جعله فرقاناً عظيماً

ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ «بعثت إلى الأحمر والأسود».

﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْكَ الْمَلَائِكَةُ وَالْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ وَلَمْ يَخِذْ لَكَ دَاوُدَ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْكَ الْمَلَائِكَةُ...﴾ ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك، وكل شيء مما سواه مخلوق مريب، وهو خالق كل شيء، وربّه، ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدييره وتسخيره وتقديره.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٢١﴾﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء، المالك لأزمة الأمور، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لم يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعابديهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة: أولهم وآخرهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ أي كذب ﴿افْتَرْتَهُ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أي واستعان على جمعه بقوم آخرين ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه.

﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْآدَوِيْنَ اَكْتَبَبَهَا فَهِيَ تُمَلِّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْآدَوِيْنَ اَكْتَبَبَهَا﴾ يعنون كتب الأوائل أي استسخها ﴿فَهِيَ تُمَلِّى عَلَيْهِ﴾ أي تقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي في أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره، ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى أنهم كانوا يسمونه في صغره، وإلى أن بعث الأمين، لما يعلمون من صدقه

وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة. ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحراروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 48].

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٦﴾

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صادقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أي الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعاندتهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى.

﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ

فَيَكُورُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٧﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ يعنون كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُورُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه.

﴿أَوْ يُنْفِقَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ

إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿٨﴾

﴿أَوْ يُنْفِقَ إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أي علم الكنز ينفق منه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي تسير معه حيث سار، وهكذا كله سهل يسير على الله، ولكن الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٩﴾

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ أي جاؤوا بما يقذفونك به، ويكذبون به عليك من قولهم: ساحر مسحور، مجنون كذاب شاعر وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا﴾ عن طريق الهدى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى، فإنه ضال حيثما توجه، لأن الحق واحد، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ

فُصُورًا ﴿١٠﴾﴾

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرًا، كبيراً كان أو صغيراً. عن خيشمة قيل للنبي ﷺ إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً قبلك، ولا نعطي أحداً من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عن الله فقال: «اجمعوها لي في الآخرة» فأنزل الله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكديباً وعناداً، لا إنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي أرسدنا ﴿لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي عذاباً أليماً حاراً، لا يطاق في نار جهنم.

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَفِيظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ أي جهنم ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَفِيظًا وَزَفِيرًا﴾ يعني في مقام الحشر ﴿سَمِعُوا لَهَا تَفِيظًا وَزَفِيرًا﴾ أي حنقاً عليهم.

﴿وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ﴾ مثل الزج في الرمح أي من ضيقه وفي الحديث «والذي نفسي بيده إنهم ليستكروهن في النار كما يستكره التودد في الحائط» ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مكثفين ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة.

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ أي لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً، وادعوا ويلاً كثيراً. وقال الضحاك: الثبور: الهلاك. والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فلقاهم بوجه عبوس وزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين لا يستطيعون حراكاً، ولا استنصاراً ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۖ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ ﴿١١﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومسكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا ييغون عنها حولاً. وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أي لا بد أن يقع، وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير الطبري عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أي وعداً واجباً.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقرير الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هو عيسى والعزير والملائكة ﴿فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾ أي فيقول تعالى: للمعبودين: أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟.

﴿قَالُوا سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يُنْبِئُنَا أَن نَّتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الزِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ ﴿١٨﴾

أي ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم ﴿وَلٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الزِّكْرَ﴾ أي طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي نسوا ما أنزلته إليهم على السنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي هلكت.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ ﴿١٩﴾

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي لا يقدر على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ﴾ أي يشرك بالله ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذية به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة الظاهرة ما يستدل له كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤوا به من الله ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي اختبرنا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي، ولهذا قال: ﴿أَنْصَرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي بمن يستحق أن يوحي إليه. وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى: إني مبتليك ومبتلي بك» وفي المسند عن رسول الله ﷺ «لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة» وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً فاختار أن يكون عبداً رسولاً.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا ﴾ ﴿٢١﴾

يقول تعالى مخبراً عن تعنت الكفار في كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي بالرسالة كما تنزل على الأنبياء، فزاهم عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا﴾.

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشري لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالذر، والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها الروح الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتأبى الخروج، وتتفرق في البدن فيضربونه كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾ [الأنفال: 50] وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا سَتَنزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿تَحْنُ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿لَوْلَا مَنَعْنَا رِجْمَ﴾ ﴿٣٧﴾ [فصلت: 30-32]. ﴿وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم، وأصل الحجر المنع، ومنه يقال: حجر القاضي على فلان إذ منعه التصرف إما لفسل أو سفه أو صغر أو نحو ذلك، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام، لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه، وإنما يطاق من ورائه، ومنه يقال للعقل: حجر لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢٣)

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ...﴾ هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص، وإما المتابعة لشرع الله، ﴿هَبَاءً﴾ هو شعاع الشمس إذا دخل الكوة، والغرض أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحداً إذ أنها لا شيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: 18].

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٢٤)

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم، والنجاة من النار ﴿مَقِيلًا﴾ مأوى ومنزلاً.

﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاوَاتُ بِالْغَمِّمْ وَزُلَّ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا﴾ (٢٥)

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء، وتفطرها، وانفراجها بالغمم، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السماوات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام الحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَىٰ الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٢٦)

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ وفي الصحيح أن الله يطوي السماوات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون أين المتكبرون؟ ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَىٰ الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ فهذا حال الكافرين في هذا اليوم، وأما المؤمنون ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: 103].

﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧)

﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وما جاء به من عند الله، وسواء كان سبب نزولها في عقبه بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

﴿يَوَدَّلُنِي لِيَتَّبِعَنِي لَوْ أَتَخَذَ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨)

﴿يَوَدَّلُنِي لِيَتَّبِعَنِي لَوْ أَتَخَذَ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، سواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ حَذُولًا﴾ (٢٩)

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي بعد بلوغه إلي ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ حَذُولًا﴾ أي يخذله عن الحق، ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل بعد بلوغه الحساب.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ

الْمُجْرِمِينَ وَكُفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١)

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضية، لأن الله جعل لكل نبي عدوًّا من المجرمين يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن، لثلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن، فلهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ

تَرْتِيلًا﴾ (٣٢)

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعتهم وكلامهم فيما لا يعينهم حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحى إليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزرور وغيرها من الكتب الإلهية، فأجابه الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأُوهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْرٍ﴾ [الإسراء: 106] ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ بيناه تبييناً، وفسرناه تفسيراً.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣)

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَكَّرْنَا مَكَانًا وَأَصْلُ سَبِيلًا﴾ (٣٤)

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ

الحالات، وأبجح الصفات ﴿الَّذِينَ يُحْتَرُوكَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرًّا مَّكَانًا وَأَسْفَلَ سَيِّلًا﴾ ﴿٣١﴾ وفي الصحيح عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجله قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ ﴿٣٥﴾ فقلنا أذهباً إلى القوم الذين كذبوا بِآيَاتِنَا فَدمَرْنَاهُمْ تدميراً﴾ ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أغرقتهم وجعلناهم للناس آيةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أليماً﴾ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثمودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا﴾ ﴿٣٩﴾

يقول الله تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً، أي نبياً موازراً ومؤيداً، وناصراً، فكذبهما فرعون وجنوده ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أُنْتَاهَا﴾ [عمد: 10] وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً ﷺ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل، إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولهذا قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، ويحذرهم نقمته ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40] ولهذا أغرقهم الله جميعاً، ولم يبق منهم أحداً من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارَةِ﴾ ﴿١١﴾ لِجَعَلَهَا لِكُلِّ تَذَكُّرٍ وَتَيْمَنًا أُذُنٌ وَعِيَةً﴾ ﴿١٢﴾ [الحاقة: 11، 12] أي وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم من إنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره. وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثمودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ﴾ هم أهل قرية من قرى ثمود. ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أي وأما أضعاف من ذكر أهلكتناهم، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ﴾ أي بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة، وأزحنا الأعدار عنهم ﴿وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا﴾ أي أهلكتنا إهلاكاً، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 17] والقرن هو الأمة من الناس كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ﴾ ﴿٤١﴾ [المؤمنون: 42] وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة، وقيل بمائة، وقيل بثمانين، وقيل: أربعين، وقيل: غير ذلك، والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهو قرن آخر كما ثبت في الصحيحين «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوْءَ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلَّ كَانُوا لَا

يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ ﴿٤٢﴾

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَىٰ آلِ قَارُونَ أَن يَأْتِيَنَّكَ مَطَرُ السَّيِّئِ﴾ يعني قرية قوم لوط، وهي «سدوم» التي أهلكتها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: 173] وقال: ﴿وَاتَّكُرُ لُنُورُونَ عَلَيْهِمْ مُصِيبِينَ﴾ [البالغ: 137، 138] وقال: ﴿وَأَنهَا لَيْسَبِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ [الحجر: 76] ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرْتَدَّوْنَ عَلَيْهَا﴾ أي فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنعال بسبب تكذيبهم بالرسول، وبمخالفتهم أوامر الله ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَتَّجِرُونَ شَيْئًا﴾ يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً، أي معاداً يوم القيامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَازُكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلَدَىٰ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَازُكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلَدَىٰ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي على سبيل التنقص والازدراء، فقبجهم الله.

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ يعنون أنه كان يثنهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها. قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾

ثم قال تعالى لنبية ﷺ منيها أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي مهما استحسنت من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فالق: 8] ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا للعبادة لله وحده لا شريك له فلم يفعلوا، وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾

من ههنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء

المختلفة والمتضادة فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ الظل: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي دائماً لا يزول ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (٤٦)

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ أي الظل، وقيل: الشمس ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي سهلاً، أو سريعاً، أو خفيفاً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه، أو ﴿يَسِيرًا﴾ قليلاً قليلاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِيَأْسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (٤٧)

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِيَأْسًا﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه. كما قال تعالى: ﴿وَالَيْلَ إِذَا بَغِثَ﴾ [الليل: 1] ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن وسكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨)

وهذا أيضاً من قدرته التامة، وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي بمجيء السحاب بعدها. والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما قبل ذلك تغم الأرض، ومنها ما يلقيح السحاب ليمطر، ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي آلة يتطهر بها.

﴿لِنَحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ (٤٩)

﴿لِنَحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات ولا شيء فيها، فلما جاءها الماء عاشت واكتسبت رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَلْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5] ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناس محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزرعهم وثمارهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٥٠)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض الأخرى فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقاً، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة، والحكمة القاطعة. قال ابن عباس وابن مسعود: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن

الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا بِأَحْيَاءِ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ﴾ أن الله قادر على إحياء الأموات، والعظام الرفات، أو ليذكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يعني الذين يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا. وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذاك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب».

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل، ولكننا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿لِيَذْكُرُوا بِهِ وَمَنْ بَلَغْ﴾ [الأنعام: 19].

﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ يعني القرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 73].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا

تَحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

أي خلق المائين: الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال، وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن، وهو عذب فرات، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم وأراضيهم. وقوله: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي مالح مر زعاق، لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي بين العذب والمالح، أي حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿وَحِجْرًا تَحْجُورًا﴾ أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ أي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة وعدله وجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى كما يشاء. ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات، وكل ذلك من ماء مهين، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً بلا

دليل قادمهم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء والتشهي والاهواء، فهم يوالونهم، ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله المؤمنين فيهم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ يقول: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك، أو موالياً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥٦)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥٦) أي بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٥٧)

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على هذا البلاغ، وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعّل ذلك ابتغاء وجه الله ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) [التكوير: 28] ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي طريقاً ومسلماً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ (٥٨)

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً الذي ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3] الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله ذكرك وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه، ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك، ومؤيدك ومظفرك. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي اقرن بين حمده وتسيحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» أي أخلص له العبادة والتوكل. ﴿وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أي بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ

بِهِ خَيْرًا﴾ (٥٩)

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه الذي خلق بقدرته وسلطانه السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي يدبر الأمر ويقضي الحق، وهو خير الفاضلين. ﴿فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ أي استعلم عنه من هو خير به، عالم به، فاتبعه، واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله، ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فما قاله فهو الحق، وما أخبر به فهو الصدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق، وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ

اللَّهُ وَالرَّسُولِ ﴿النساء: 95﴾ أَوْ ﴿فَتَسَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ أَي مَا أَخْبَرْتِكَ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ كَمَا أَخْبَرْتِكَ، أَوْ هَذَا الْقُرْآنَ خَيْرٌ بِهِ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ أَي لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ، وَكَانُوا يَنْكُرُونَ أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنَ، كَمَا أَنْكُرُوا ذَلِكَ يَوْمَ الْحَدِيثِ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْكَاتِبِ: اكْتُبْ «بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَقَالُوا: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: 110] أَي هُوَ اللَّهُ وَهُوَ الرَّحْمَنُ. ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أَي لِمَجْرَدِ قَوْلِكَ: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ الَّذِي هُوَ لِرَحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَيُفْرِدُونَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَيَسْجُدُونَ لَهُ.

﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿١٨﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى مَمَجَّدًا نَفْسَهُ وَمَعْظَمًا عَلَى جَمِيلِ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْبُرُوجِ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْعَظِيمُ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ وَهِيَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ الَّتِي هِيَ كَالسِّرَاجِ فِي الْوُجُودِ ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ أَي مُشْرَبًا مُضِيئًا.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ آيَاتٍ وَالنَّهَارَ خِلْفَةَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ آيَاتٍ وَالنَّهَارَ خِلْفَةَ﴾ أَي يَخْلُفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، يَتَعَاقَبَانِ لَا يَفْتَرَانِ، إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ ذَلِكَ ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أَي جَعَلَهُمَا يَتَعَاقَبَانِ تَوْقِيئًا لِعِبَادَةِ عِبَادِهِ لَهُ عِزٌّ وَجَلٌّ، فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي اللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ فِي النَّهَارِ، وَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي النَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ فِي اللَّيْلِ. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «إِنَّ اللَّهَ عِزٌّ وَجَلٌّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءَ اللَّيْلِ».

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٢٠﴾﴾

هَذِهِ صِفَاتُ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أَي بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ، مِنْ غَيْرِ جَبَرِيَّةٍ وَلَا اسْتِكْبَارٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَمْشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37] فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ يَمْشُونَ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْبَارٍ وَلَا مَرَحٍ وَلَا أَشْرٍ وَلَا بَطْرٍ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ كَالْمَرْضَى تَصْنَعًا وَرِيَاءً، فَقَدْ كَانَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ﷺ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صِيبٍ، وَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ تَطْوِي لَهُ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أَي إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمُ الْجَهَالُ بِالْقَوْلِ السَّيِّئِ لَمْ يَقَابِلُوهُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ، بَلْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ، وَلَا يَقُولُونَ إِلَّا خَيْرًا. كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ أي في طاعته وعبادته، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ مَا يَهْتُمُّونَ ﴿٦٧﴾﴾ وَيَأْتِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ السَّاعِرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الذاريات: 17، 18].

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ أي ملازمًا دائمًا.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

أي بشس المنزل منظرًا، وبشس المقيم مقامًا.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم فيقصرون في حقهم، فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا، ولا هذا ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: 29] روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال: «من فقه الرجل قصده في معيشته» ولم يخرجوه. وروى أيضاً عن رسول الله ﷺ «ما عال من اقتصد» لم يخرجوه. وروى البزار عن رسول الله ﷺ قال: «ما أحسن القصد في الغنى، وما أحسن القصد في الفقر، وما أحسن القصد في العبادة». وقال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف، وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا

يَزْنُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله، هو ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله أنداداً وهو خالقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ وقد أخرجه البخاري ومسلم. وقد ذكر أن لقمان الحكيم كان يقول: يا بني، إياك والزنا، فإن أوله مخافة وآخره ندامة. ﴿يَلْقَىٰ أَثَامًا﴾ جزاء.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذا تفسير لقوله: ﴿يَلْقَىٰ أَثَامًا﴾ وهو بدل منه. أي يكرر عليه ويغلظ ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ أي حقيراً ذليلاً.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ أي في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي إنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات، أو أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة والنصح وحسنات، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ أي فإن الله يقبل توبته كما قال ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سُوًّا أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: 110].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق، والكفر واللغو الباطل، أو هو اللغو والغناء. أو المراد شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره كما في الصحيحين عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً، قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكأً فجلس فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ لم يصموا عن الحق، ولم يعموا فيه، فهم عقلوا عن الحق، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ

﴿إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا﴾ يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أئمة يقتدى بنا في الخير، وهداة مهتدين دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم، وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآباً، ولهذا ثبت في صحيح مسلم «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية».